مقهى الشابندر في بغداد

محمد ابراهيم محمد

تعد مقهى الشابندر من اشهر المقاهي القديمة في بغداد وأصبحت من الأندية الاجتماعية التي تكمل دورة الحياة اليومية في الوقت الحاضر لذوي الميول المتقاربة والمهن المتشابهة ويتردد عليها التجار والموظفون والادباء ،والعمال يلجأون اليها طلباً للراحة ويجلسون فيها ويدخنون الاراكيل والسكائر ويشربون بعض اكواب الشاي والقهوة ، وهذه المقهى من المقاهي التي تجلب الزوار الأجانب ايضاً وهي في الوقت نفسه مقهى شعبي يشعر فيه المرء عند الجلوس بالبساطة والانزواء بعيداً عن هموم ومتاعب العصر البريء.

يروي الحاج محمد كاظم الخشالي صاحب المقهى ان هذه المقهى قد أنشئت عام ١٩١٧ في بداية الاحتلال البريطاني لمدينة بغداد . وان انشاء بنايتها يعود الى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وهذه البناية كانت مخصصة سابقاً الى مطبعة الزوراء ابان الحكم العثماني المتأخر في العراق (١).

تمتاز هذه المقهى بالطراز المعماري البغدادي الاصيل وهي مشيدة بالطابوق والجص ، ونظراً لفخامة هذا البناء وانفراده من حيث التصميم والهندسة التي برع فيها المعمار العراقي فانه يعتبر من اهم المواقع الاثرية الشاخصة الى اليوم في بغداد مما جعل السواح والمراسلين الاجانب والمحطات الفضائية يتوافدون اليها للتمتع بالمقهى والافادة من المثقفين والادباء ويعقدون المقابلات الشخصية مع الجمهور البغدادي داخل المقهى.

من الجدير بالذكر ان اسم هذا المقهى سمي بأسم اصحابه من اسرة الشابندر العائلة البغدادية القديمة التي عُرفت بالغنى والجاه ، وانجبت رجالا عرفوا في مجال التجارة والسياسة ، وعميد هذا البيت هو الحاج محمد سعيد بن الحاج احمد اغا الشابندر الذي كان والده رئيس التجار في بغداد وعيناً من اعيانها

وكرمائها واخذ الاسم من هذه المهنة (رئيس التجار أي شابندر التجار) وهو من سكان محلة (جديد حسن باشا) وكان له قصران مطلان على نهر دجلة في الاعظمية في محلة السفينة الان ، وقد اوصى ولده محمود ببناء مسجد له على جزء من ارض حديقة القصرين المتجاورين وبعد وفاته بنى له مسجدا سمي مسجد الشابندر(٣) عام (١٣٢٢ هـ /١٩٠٤ م) ودفن الحاج محمد سعيد في هذا المسجد وقد اشتهر عدد من احفاد هذا الرجل منهم السيد موسى الشابندر والذي شغل عدة مناصب دبلوماسية ومعمر خالد (طبيب معروف) والدكتور خليل وجميل . وترتبط عائلة الشابندر كما يذكر ابراهيم عبد الغني الدروبي بروابط وثيقة مع عائلة فتاح باشا والالوسي والسنوي ، وان الحاج محمود جلبي الشابندر هو الذي اسس هذه المقهى.

تقع (مقهى الشابندر) حالياً في محلة جديد حسن باشا في نهاية شارع المتنبي مقابل سوق السراي . ومن المعالم التي تحيط بهذا المقهى هو (الاكمك خانة) وهي كانت دار الطعام للجند العثماني وقد ازيلت وبني عليها مصرف الرشيد . كما تحيط بها كذلك (القشلة العسكرية) وهي سراي الحكم والمؤسسات الرسمية التي ضمتها القشلة وبنايات اخرى تعود الى اواخر عهد الدولة العثمانية والمدرسة الرشيدية العسكرية التي شغلت في عهد الدولة العراقية (المحاكم المدنية) واخليت هذه الابنية من قبل الدولة في الثمانينيات من القرن العشرين الماضي لتصبح ابنية تراثية.

ان لهذه المقهى القديمة تاريخا عميقاً فمن داخلها انبثقت اغلب الانتفاضات الوطنية والحركات السياسية والنهضات الأدبية والفكرية فكان روادها من إعلام الفكر والأدب والعلم والوطنية من كتاب وشعراء وفقهاء وعلماء وصحفيين احرار تركوا بصمات مضيئة في تاريخ العراق الحديث.

تعد (مقهى الشابندر) مركزاً للتفاعل الاجتماعي يرتاده الناس من وجوه شتى وإنحاء مختلفة لقضاء وقتهم بالأحاديث الشيقة والفكاهات الممتعة والنكات المسلية والالتقاء بالمعارف والأصدقاء لمعرفة إخبار بعضهم البعض ويتبادلون وجهات النظر في أمورهم الخاصة والعامة حيث يجلسون لشرب القهوة ويدخنون السكائر والاركيلة فقط .

كما إن صاحب المقهى الحاج الخشالي قد منع اللعب المسلية في هذا المقهى مثل (الدومينو والطاولي) لاعتبارات أساسية للمحافظة على سمعة هذه المقهى العريقة وعلى حد تعبيره الخاص .

كما إن هذه المقهى يجتمع فيها التجار وأصحاب الحرف ولالتقاء ذوي الحاجة من الناس وتناقش فيها أمور التجارة والبيع والشراء والعقود التجارية وغيرها من الأمور قتصادية .شهد هذا المقهى في عشرينيات القرن العشرين الماضي ولأول مرة دخول جهاز الحاكي (الفونوغراف) في بغداد حيث سارع اصحاب المقاهي الآخرون لاقتنائه فانتشرت عادة سماع الأغاني والتراتيل الدينية داخل المقاهي ، ثم دخل بعد ذلك جهاز آخر متطور هو (الغرامافون) وقد بلغ التنافس بين المقاهي انذآك لجذب الرواد.

تميز هذا المقهى باسلوبه الرائع في معاملة الزبائن وتقديم الشراب والشاي ، كما تميز المقهى كذلك بترتيب مقاعده الخشبية القديمة وباستطاعة رواده قراءة الجرائد الأجنبية والعربية لما تميز به من هدوء نسبي ، ويعد هذا المقهى في الوقت نفسه منتدى أدبيا أكثر منه مقهى حيث تجري فيه المناظرات الشعرية والأدبية كما يرتاده الكثير من الشعراء والأدباء والعلماء. أن هذا المقهى في الوقت الحاضر تظهرعليه مظاهر الفخامة والجمال والتراث القديم وقد زينت جدرانه الداخلية بالطابق الأول الأرضي بالتصاوير الفوتوغرافية القديمة التي تعود الى بغداد في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ويعد وكأنه متحف بغدادي قديم. كما وضعت في داخل المقهى وعلى مكان مرتفع السماورات والاراكيل القديمة التي تدل دلالة عامة على قدسية الأشياء القديمة التي عرفها البغداديون عبر تاريخهم الطويل . ويرتاد المقهى مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية فنجد فيها مشاهد حية يومية مثل إعلانات الشركات والبضائع واسعار السوق ونماذج من طبع الكتب الثقافية الحديثة واما الطابق العلوي من المبنى فكانت تقع فيه مكاتب جريدتي (الكرخ) و(حبزبوز) في الثلاثينيات من القرن العشرين الماضي وكان المغني رشيد القندرجي يقرأ المقام العراقي ومايزال هذا المقهى التراثي قائماً الى الان بالرغم من المحاولات اليائسة لتحويله الى محال تجارية.

ختاماً وأخيرا لابد من القول ان (مقهى الشابندر) يعتبر مأوى متكاملاً بحيث تعوض روادها عن بيوتهم واماكن عملهم وهي تشكل للناس نسيج حياتهم اليومي ، واتخذت في تسميتها سمة عائلة بيت الشابندر البغدادية العريقة ونالت شهرة واسعة في بغداد ،وهي أشبه بالمركز التجاري والثقافي ويلتقي فيها الناس وأصحاب الكفاءات العقلية، ويتبادلون وجهات النظر في أمورهم الخاصة والعامة، ويعقد فيها التجار والإشراف والأغنياء صفقاتهم التجارية الأولية ويتبادل الآخرون الأحاديث ومختلف النوادر والحكايات والإشعار والأفكار والآراء وقراءة الصحف المحلية كل يوم ، ويرتادها السياح والأجانب الذين يأتون الى العراق للترويح عن النفس وليتمتعوا بتراثها القديم

مطربات في الذاكرة

زهور حسين نجمة ملهى سبع .. ووحيدة خليل تعيد للاغنية الريفية تألقها

كمال لطيف سالم

زهور حسين

من يتذكر ملهى سبع في ساحة الميدان ببغداد؟ حيث كانت تغني واحدة من أشهر مطربات بغداد آنذاك، وملهى ماجستك الذي سمي فيما بعد ملهى الهلال الذي رقصت فيه الراقصة التركية الشهيرة. الن . ونشطت فيه الفنانة ماريكه ديمتري وغنت فيه كوكب الشرق ام كل ثوم، وانتقلت اليه من

ملهى سبع المطربة زهور حسين في الخمسينيات، وكانت قد بدأت حياتها (ملاية) تشارك في مجالس العزاء النسائية الحسينية وقد انطلقت شهرتها لتعم بغداد كلها لرخامة صوتها وعذوبته وقدرتها على الحفظ وبراعتها في الاداء، وقد اغواها رجل احبته بعمق واقنعها بالتحول إلى الغناء، ففعلت، وفي الخمسينيات اقتنت مقاهي بغداد اجهزة التسجيل الحديثة آنذاك إلى جانب الغرامفون والراديو المضبوط المؤشر على اذاعة بغداد، فكانت حصة زهور حسين واحدة من اكبر الحصص في اذاعة اغانيها المقاهي عن طريق اجهزة التسجيل أو في الاذاعة البغدادية، وقد انتشرت صورها على جدران المقاهي التي لا تني تكرر اغنيتها الرائعة (لو للغرام حاكم) أو الأخرى (غريبة من بعد عينج ييمه) بصوتها الشجي الشاكي الباكي.

وقد تزوجت زهور سرا من رجل احبته واحبها وهو من عائلة معروفة لم تشأ ان تعرضه للاحراج امام عائلته ومجتمعه باعلان الزواج فالمجتمع العراقي المحافظ يعد الزواج من فنانة تعمل في ملهى (كارثة خلقية واجتماعية) وقد ورثها ذلك الرجل عند وفاتها حسب وصيتها.

وسجلت زهور حسين عدة اسطوانات لشركات انجليزية والمانية غنت فيها نماذج من الفولكلور العراقي فضلا عن الالحان البغدادية التي قدمها لها عدد من الملحنين البغداديين المعروفين الذين برزوا في الخمسينيات في اروقة الاذاعة امثال عباس جميل ومحمد نوشي واخرين.

وتعد زهور حسين واحدة من المع نجوم الغناء البغدادي وكان رصيدها من الاسطوانات عاليا في شركة جقماقجي البغدادية وهي الشركة العراقية الاولى التي ابدعت في تسجيل اصوات الفنانين الرواد في العراق مثل حضيري ابو عزيز وناصر حكيم بالنسبة للغناء الريفي وقراء المقام العراقي محمد القبانجي ويوسف عمر ومازالت في موقعها القديم في مدخل شارع الرشيد من ناحية الباب الشرقي الا ان اوضاعها وطبيعة عملها تغير الآن.

كما كان لزهور حضور قوي في اذاعة بغداد، ولها رصيد عال من الاغاني المسجلة والاسطوانات في ارشيف الاذاعة.

وحيدة خليل

ي المطربة مريم بنت عبدالله بن جمعة من عشيرة الكاظارنة ومن مواليد محافظة البصرة .

المطربة وحيدة خليل مطربة جزيلة العطاء تملأ ذاكرة المكتبة الغنائية بأعذب أغانيها ، شجية الصوت محدودة المساحة ، عنيدة في الإعلام عن تاريخ ميلادها ، تجيد الغناء الريفي الاصيل القريب من اذن المدينة ، حلاوة الصوت ترافقها حتى تدوين هذه السطور ، تحس النبرات الطفولية في صوتها وهي في العمر الذي لايعرفه الا الله وهي .

بدأت الغناء في غضون عام ١٩٤٩ متأثرة بالسيدة أم كلثوم والمطربة ليلى مراد ثم اتجهت الى الغناء الريفي عند دخولها الاذاعة في عام ١٩٥٠ ، وكانت اول اغنية لها هي (يا يمه ذاك اهواي) وفي العام نفسه سجلت لها الشركات مجموعة من الاسطوانات كان اولها اسطوانة (دللو يل ولد يبنى) ، وفي عام ١٩٦١ اشتركت في تمثيل فيلم (فجر الحرية) وغنت فيه اغنيتها المشهورة (هذا منو دق الباب) وقد اختارت لها لقباً فنياً فاشتهرت باسم (وحيدة خليل) واجادت من اطوار الابوذيه (الحياوي ، المستطيل ، الغافلي ، الدشت ، العنيسي) إلى جانب السويحلي والنايل والبستة . وكان صوتها الشجي وقدرتها على الاداء جواز مرورها إلى دار الاذاعة العراقية، ومن يستمع إلى صوتها خليل يشعر بذلك الحزن الطاغي الذي يطبعه بقوة ليشتمل جميع مساحة صوتها، وهي تنقل بامانة (انين الجنوب) سواء ادركت ذلك أم لم تدركه وهذا هو سر قدرتها على اداء الابوذية التي عشقتها بعمق، ويمكن فهم سر الحزن والاسى الذي ينقله طابع الانين في ادائها من خلال فهم معاناة الفلاح العراقي الجنوبي والأمه، فهو قن للاقطاعي وسوط الصركال يلهب ظهره كل يوم، وكل يوم ينهش الجوع جسده ويغتاله الحرمان والجهل والوجع، ليئن بصدق، حتى ترسخ الانين في روحه وجسده وجيناته، وصار حتى حين يفرح يئن، ومن يسمتع إلى نغم (المحمداوي) الخاص بمحافظة العمارة التي عاشت فيها وحيدة طفولتها وشطرا من شبابها بامكانه ان يسمع بوضوح ذلك الانين وهو ما نقلته بحة صوت وحيدة خليل، التي لم تستطع هي الأخرى الخلاص من طوق الحزن المضروب على صوتها وادائها حتى وهي تغني اغنية كان من المفروض ان تكون مفرحة كاغنية (سبحانه الجمعنا بغير ميعاد) فتلك هي طينتها وقد كررت ذلك في اغنية (انا وخلي تسامرنا وحجينا).

نعم نقلت وحيدة خليل معاناة الفلاح الجنوبي ومضاعفات القهر الاجتماعي للمرآة في الريف من دون افتعال فكانت كوكبا حقيقيا في صالونات البيوتات الجنوبية وفي مناطق بغداد التي هرب اليها فلاحو الجنوب بعد ثورة ١٤ تموز ٥٨، أملا في تغيير واقعهم المؤلم، ومازال الحنين إلى صوت وحيدة خليل يملك مشاعر الكثيرين ويثير عواطفهم، والسؤال هو هل فقدنا تسجيلات المطربين العراقيين بمن فيهم وحيدة خليل يوم فقدنا ارشيف الاذاعة والتلفزيون؟ وللاجابة عن هذا السؤال لا اريد الحديث عن الجوانب المؤلمة في هذه الخسارة التي لا تعوض وانما عن الأمل الذي ينشره وجود محلات التسجيلات التي تحتفظ لهؤلاء المطربين بارثهم الفني، والمطلوب هو السعي لجمع هذا الأرث من هذه المحلات وهي ليست بالمهمة الصعبة.

ألعاب شعبية بغدادية منسيّة

لبيد شاكر

كثيرة هي الالعاب الشعبية التي ابتكرها البغداديون وطواها النسيان، كي يملؤوا بها اوقات فراغهم الطويلة لم تكن تلك الالعاب معقدة او مركبة، بل هي مستوحاة من الواقع الحياتي للمجتمع انذاك بعضها كانت مشوبة بشيء من القسوة، واخرى فيها طرافة وتسلية وهناك العاب للاطفال وللبنات، ولربات البيوت، وهي قطعا نتاج تلك العلاقات والاواصر الاجتماعية المتينة، والتي كانت تعبر عن مستوى المحبة والتآلف والتآخي بين جميع شرائح المجتمع البغدادي ذي الاطياف المتداخلة والمتلاحمة وهي التي شكلت تلك الثقافة الجمعية الراسخة التي لا تزال عالقة في ذاكرة البغداديين ومن هذه الالعاب الشعبية:

إبريسم إبريسم.. إيش؟

يتألف فريق اللعبة من استاذ ومساعد للاستاذ وعدد من اللاعبين (الصناع): اما طريقة اللعب فتتضمن جلوس الاستاذ وبيده حزام جلدي وبجانبه المساعد يحيط بهما الصناع وانظارهم شاخصة ترقب شفاه الاستاذ ومساعده وهما يتهامسان لاختيار احد الالوان الذي سيكون سؤالاً يطرحانه على اللاعبين بعد ان يتفقا على احد الالوان يبدأ الاستاذ بتوجيه السؤال قائلا: إبريسم ابريسم إيش؟

فمن يحدد اللون الذي ضمراه يأخذ الحزام منه ويبدأ بضرب اللاعبين على ظهورهم وهم يهربون امامه الى ان ينادي الاستاذ بكلمة (حلّت)، عند ذاك يتوقف عن الضرب فورا ويعود كل منهم الى مكانه، اما اذا استمر بضرب اقرانه بالحزام فيكون للاعبين الحق في الاحاطة به وأخذه منه عنوة ومن ثم ضربه باكفهم المبسوطة على ظهره الى ان (يوكع دخيل) عندئذ يأمرهم الاستاذ بالعفو عنه واستئناف اللعب مرة اخرى.

تك منا جفت فردي لو زوجي

ومن العاب الخرز تلك التي كانت تسمى (تك منا جفت) ويتكون فريق اللعبة من متباريين اثنين يجلسان كل قبالة صاحبه، وقد هيأ كل منهما مجموعة من الخرز الملونة، التي كان يبيعها عطار الطرف بـ(بيزه) اي (فلس واحد) لكل ثلاث خرزات، وبعد الاقتراع بطريقة (طره لو كتبه) عندئذ يبدأ اللعب اولا من فاز بالقرعة اذ يضع في قبضة احد كفيه مجموعة من الخرز ويمدها نحو مبارية قائلا (تك منا.. جفت؟) اي هل عدد الخرز الموجودة بكفي فردي ام زوجي؟ فاذا ضمن العدد اخذ ما بقبضة صاحبه من خرز، واذا اخطأ في التخمين اعطاه خرزا بقدر العدد الذي بقبضته وهكذا تستمر اللعبة حتى يضجرا.

خطبة العروس

لعل اهم ما تتميز بها العاب البنات هي تلك الدعابة المفعمة بالبراءة واللطف والمحبة والاناشيد ومن هذه (لعبة خطبة العروس) اذ يتم تشكيل فريقين يتألف كل منهما من عدد لايتجاوز (الخمس بنات) يقفن صفين متقابلين تفصلهما مسافة لاتقل عن ثلاثة امتار، وتتماسك بنات كل فريق مع بعضهن بفتح الذراعين وشبكهما خلف رؤوس اللاعبات، فيتقدم الفريق الاول الذي يمثل (الخطابة) نحو الفريق الثاني الذي يمثل اهل العروس مرددات:

الله مصبحكم بالخير.. يالعمّار العمّارة

وتجيبهم بنات الفريق الثاني بالعبارات نفسها وهن يخطين نفس الخطوات التي خطينها بنات الفريق الاول، بغية بقاء المسافة بينهما ثابتة، ثم تتقدم بنات الفريق الاول مرة ثانية مرددات:

جينا نخطب بتكم.. يالعمار العمارة

فتجيبهن بنات الفريق الثاني مرددات:

ما ننطيهه هيه حكها الف وميه

وكلادة وترجيه محطوطه بصينيه

بعد ذلك يقمن بالهجوم على الفتاة التي تقف في وسط الفريق ويخطفنها عنوةوتنتهي اللعبة بالهلاهل والفرح والضحك والمرح.

اهازيج الاطفال.. عبث

ولعل عبث وشغب الاطفال لا يتوقف عند حد معين، فهم اذا شاهدوا يومئذ سيارة في احد الازقة، وكان هذا مشهدا مميزاً مألوفا انذاك صاحوا باعلى اصواتهم:

هوب، هوب طفّي جدامك الطسه

لوري وكع بالبير محد سمع حسه

ومن اهازيجهم العبثية اذا رأوا امرأة حبلى صاحوا:

عالبركة عالبركه حبلت وجابت تنكه

اما اذا سمعوا بان احدا من شباب الطرف قد اقترن بامرأة تفوقه عمرا طمعا بمالها هزجوا شاجبين:

فلان سليمة لتطمه ما خذ مرة بكد امه

اديوسها مخاديد والشيب وين اتضمه.